العهد الإلهيّ والزواج
قراءة في سفر إرميا

الخوري جان عزّام
أستاذ مادّة العلوم البيبليّة
كلّيّة اللاهوت الحبريّة، جامعة الروح القدس، الكسليك

مقدّمة

يحتلّ موضوع العهد المكانة الأولى في أقوال الأنبياء وكتبهم؛ وهم يعبّرون عنه بعدد كبير من المقاربات والصور، الواقعيّة أو الرمزيّة–المجازيّة، التي تصف هذه العلاقة في التاريخ، بين الله وشعبه؛ ولأنّ الله دخل في تاريخ هذا الشعب، وصنع معه عهدًا شخصيًّا، ووضعه في مسيرة حياة نحو تحقيق كمال العهد معه، فإنّ ميزة كلام الأنبياء عن هذا العهد تظهر في إبرازهم أهمّيّة هذه العلاقة الحياتيّة بين إسرائيل والله.

في هذا الإطار، يمكننا أن نفهم لماذا لجأ الأنبياء إلى استعارة صورة الأب أو الزوج، فنسبوها إلى الله، بينما استعاروا، في المقابل، صورة الابن أو الزوجة لشعب العهد؛ فالصورتان تعبّران عن العهد بكونه علاقة حبّ ومسيرة مشتركة في التاريخ الواقعيّ، أكثر منها مجرّد رباط قانونيّ، يقوم على وصايا إلهيّة يحفظها الشعب ويعمل بها، مقابل الحصول على الحماية الإلهيّة أو البركة والخيرات التي يرجوها من إلهه.

أودّ أن أتوقّف هنا عند صورة الزواج المعبّرة عن العهد في سفر إرميا، كنموذج لفهم جوهر علاقة الحبّ التي تجمع بين الله والإنسان، ويمكن أن تدوم إلى الأبد، بخلاف علاقة الحبّ المحض بشريّة، التي تتعثّر بمجرّد خيانة أحد الطرفين لهذا الحبّ. في الحبّ البشريّ، عندما ينتفي الحبّ من جهة أو من أخرى، فإنّ العلاقة تنتهي إلى الانفصال، إن لم تتحوّل إلى عداوة؛ أمّا الحبّ الإلهيّ، فإنّه يطرح معضلة كبيرة: إنّه حبّ قد يُضحي جريحًا بخيانة الحبيب الجاحد، ولكنّه مع ذلك، لا يتوقّف ولا يتبدّل. قد يقول قائل إنّ هذا الحبّ ممكن من جهة الله، لا من جهة إنسان! فكيف يستطيع الإنسان أن يظلّ يحبّ من لا يحبّه؟ وكيف يمكن الحبّ من جهة واحدة، أن يحافظ على علاقة مرفوضة؟

كتبتُ مقالة سابقة عن هذا الحبّ الغريب، في دراستي عن "عهد الحبّ والأمانة بين الله وشعبه"، وقد وصلتني أصداء بأنّ هذا الأمر غير ممكن عيشه في الزواج بين شخصين! فهل الزواج المسيحيّ هو مجرّد رباط حبّ بشريّ؟ لنرَ ما يجيبنا النبيّ إرميا.

١) إر ٢: ٢ : زمن البرّيّة، زمن الخطوبة

يقع هذا النصّ في الفصل الثاني من سفر إرميا، وهو يشكّل أوّل قول إلهيّ موجّه إلى شعب الله عن يد إرميا النبيّ. في الحقيقة، هذا القول يتوجّه بشكل خاصّ إلى أورشليم بكونها العاصمة، ومركز الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة لشعب الله.

أوّل استعارة يستعملها الله هي في اعتباره أورشليم امرأة، فيدعو نبيّه للصراخ في أذنيها! تنبع الحاجة إلى الصراخ في الأذنين من أنّ أورشليم لا تسمع! السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا بسيط، وهو التالي: لماذا لا تصغي أورشليم إلى الربّ، حتّى يضطرّ لأن يصرخ في أذنيها؟ ليس الجواب بصعب، لأنّ كلّ الفصل الثاني من إرميا، يشرح تلك الأسباب التي سدّت أذني أورشليم عن سماع صوت الربّ: إنّها لم تعد تريد أن تتبعه، وتفضّل إتباع آلهة أخرى، من أشّور إلى مصر.

موضوع الإصغاء هو في أساس لاهوت الإيمان في إسرائيل. التقليد الاشتراعيّ المتأثّر بتعاليم الأنبياء، ومنهم إرميا، يختصر كلّ الوصايا بوصيّة "إسمع يا إسرائيل" (تث ٦: ٤ي). هذه الوصيّة تدعو إلى الاعتراف أوّلاً بأنّ الله واحد، وبأنّ محبّة إسرائيل له يجب أن تكون خالصة من غير انقسام: من كلّ القلب والنفس والقوّة. هذا الحبّ ليس إلاّ جوابًا على حبّ الله الذي اختبره إسرائيل عبر تاريخه كلّه، وبالأخص في مسيرة الصحراء، التي هي الإطار التاريخيّ لخطب موسى في سفر التثنية.

إصغاء إسرائيل للربّ هو أوّلاً إصغاء القلب، لأنّ تجربة إسرائيل الأولى كانت دائمًا في القلق على الأكل والشرب، أي على الضمانات المادّيّة [١]. لقد دخلوا في تلك التجربة في كلّ مرّة خافوا من الموت بسبب نقص الطعام. في المقابل، اختبر إسرائيل أنّ الربّ أحبّه حبًّا مجّانيًّا عندما انتشله من العبوديّة وقاده في الصحراء، ولم يأبه لتذمّره وإنكاره له مرّات عديدة، فأعطاه الخبز والماء حيث لا زرع ولا ينابيع، وغفر له بدلاً من إفنائه (رج خر ١٦-١٧). ولذلك يختصر موسى ما تعلّمه إسرائيل بقوله: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله" (رج تث ٨: ٣).

وهذا الإصغاء هو أيضًا إصغاء العقل، لأنّ إسرائيل اختبر إلى أين يقوده ادّعاؤه إجبار الله على أن يفعل له ما يريده هو، لا ما يريده الربّ! وهذا هو أيضًا موضوع تجربة إسرائيل الثانية في الصحراء: إن لم يقنع الربّ عقلنا ويفسّر لنا ما يفعله، فلا نسير وراءه. إنهّا تجربة الله في التاريخ [٢]، فالذين فنوا في الصحراء هم الذين تمرّدوا وأبوا أن يسيروا وراء الربّ، فماتوا من شهواتهم، وتاهوا في طريق أرادوا أن يفرضوه على موسى، ولسعتهم ثعابين صغيرة (رج عد ٢١: ٤ ت)، هم الذين ادّعوا أنّهم أكبر من الله ومن كليمه. هذا الشعب، تعلّم أنّ الحياة هي في الطاعة للربّ وفي الاستسلام لعنايته الأبويّة، وليس في السير بأفكارهم ومخطّطاتهم (رج تث ٤: ١-٤).

وهذا الإصغاء هو أخيرًا الإصغاء بكلّ القوى، لأنّ إسرائيل اختبر أيضًا تجربة الأوثان، أي تلك الآلهة المزيّفة التي جعلته يعتقد أنّه يستطيع أن يؤمّن الحياة لذاته بقواه الجسديّة وبغنى العالم وبهرجته. ليس صدفة أنّهم صنعوا في الصحراء عجلاً ذهبيًّا ليعبدوه (رج خر ٣٢)، فاختبروا أنّ الآلهة التي تصنعها الأيدي، لا قدرة لها على إنقاذهم.

هكذا، فالمرأة (أورشليم) التي يريد الربّ من نبيّه أن يصرخ في أذنيها، ليست سوى تلك الحبيبة التي أظهر الربّ لها مودّته يوم خطبها له في الصحراء زوجة حبيبة، وقطع لها عهدًا أبديًّا. ومن هنا، نفهم الاستعارة الثانية التي يلجأ إليها النبيّ في كلامه، عندما يقول لها: "قد تذكّرت لك مودّة صباك،

(١) رج خر ١٦: ٢-٣: "فتذمّرت جماعة بني إسرائيل كلّها على موسى وهارون في البرّيّة، وقال لهما بنو إسرائيل: ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر، حيث كنّا نجلس عند قدر اللحم ونأكل من الطعام شبعنا، في حين أنّكم أخرجتمانا إلى هذه البرّيّة لتميتا هذا الجمهور كلّه بالجوع".

(٢) "لا تجرّبوا الربّ إلهكم كما جرّبتموه في مسّة" (رج تث ٦: ١٦؛ خر ١٧: ١-٧).

محبّة خطبتك، لمّا كنتِ تسيرين ورائي في البرّيّة، في أرض لا زرع بها". هذه الاستعارة مأخوذة غالبًا من هوشع النبيّ، في الفصل الثاني (آ ١٦-١٧)، عندما قال النبيّ أنّه سيُغوي زوجته، التي ترمز إلى أرض إسرائيل، ويأخذها إلى الصحراء، ويتكلّم إلى قلبها، فترنّم له كما في زمن شبابها، أي عندما أخرجها من مصر وقادها إلى أرض الميعاد عبر الصحراء. هذه الاستعارة التي تشبّه الله بالزوج وإسرائيل بالزوجة، تبدو إحدى أجمل الصور التي تعبّر عن العهد بين الله وشعبه؛ فالعهد هو كالزواج، علاقة بناها الله مع شعبه انطلاقًا من حبّه لهم، حبًّا مجّانيًّا.

٢) إر ٢: ٣-٤: ٤: لا طلاق بالرغم من الخيانة

المقطع الذي يلي آ ٢، يتميّز بنوع أدبيّ، ندعوه في اللغة العبريّة "ريب"، أي تلك الأقوال النبويّة التي تبدأ على شكل اتهام من المفترض أن يقود إلى نوع من الحكم والإدانة، ولكنّه بدلاً من ذلك يصير دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله [٣]. ، وهذا ما يميّز هنا الأقوال النبويّة التي يوجهها الله إلى إسرائيل من الفصل ٢: ١ إلى الفصل ٤: ٤:

- في آ ٢: ٩، يقول الربّ : "لذلك أتّهمكم، وأتّهم بني بنيكم"، مستعملا فعل "أريب" الذي يميّز هذا النوع من الأقوال. لقد أعلن الربّ اتهامه هذا بعد أن بيّن أنّه، كالعادة، أحبّ شعبه وأحسن إليه، بينما ينكره هذا الشعب بكلّ مكوّناته، بمن فيهم الكهنة والأنبياء والرعاة... (٢: ٤-٨). ولكنّ قوّة هذا الاتّهام لا تنبع فقط من أنّ إسرائيل أنكر الربّ، بل في كونه قد سار وراء "ما لا فائدة منه".

- كلّ سياق النصّ هو نوع من الجدال: الربّ يتّهم إسرائيل، ولكن يبدو أنّ إسرائيل هو الذي يتّهم الربّ: فبماذا يتّهمونه؟ لعلّهم يدّعون أنّه لم يساعدهم أمام تهجّم الأعداء عليهم [٤]. الشعب يتّهم الربّ بأنّه تخلّى عنهم، فيبرّرون تخلّيهم عنه! هذا الجدال يشبه لائحة الاتهامات المتبادلة، بين الزوج والزوجة عندما يختلفان!

- يبيّن الربّ لشعبه، أنّهم هم من تخلّوا عنه منذ القديم: "تركوني أنا ينبوع المياه الحيّة، وحفروا لأنفسهم آبارًا، آبارًا مشقّقة لا تمسك الماء" (٢: ١٣). ويتوجّه إليهم بصيغة المؤنّث كما يتكلّم الزوج مع زوجته: "ألم تجلبي هذا عليك بأنّك تركتِ الربّ إلهك حين كان يسيّركِ في الطريق؟" (٢: ١٧). ثمّ يصل إلى قمّة الاتّهام باستعمال فعل "الزنا" للتعبير عن ارتداد الشعب عن الربّ، وباتباعهم آلهة أخرى أو اتّكالهم على شعوب أخرى: "منذ القدم كسرتِ نيرك وقطعتِ ربطك وقلتِ: لا أخدم! فإنّكِ على كلّ تلّة عالية وتحت كلّ شجرة خضراء اضّجعتِ زانية" (٢: ٢٠). ويستمرّ معلنًا بصريح الكلام أنّ هذا الشعب هو عروسه بقوله: "أتنسى العذراء حليتها، والعروس زنّارها؟ أمّا شعبي فنسيني أيّامًا لا تُحصى" (٢: ٣٢). وأخيرًا، يبدو كأنّه يبرّر لنفسه إعلان الطلاق من هذه الزوجة الخائنة، فيطرح هذا السؤال البلاغيّ المستعار من شريعة الطلاق اليهوديّة (تث ٢٤: ١-٤): "يقال : إذا طلّق الرجل امرأته، فذهبت من عنده وصارت لرجل آخر، فهل يرجع إليها من بعد؟ ألا تتدنّس تلك الأرض تدنّسًا؟ وأنتِ فقد زنيتِ مع أخلاّء كثيرين ، أفترجعين إليّ يقول الربّ؟" (٣: ١). بمثل هذه

(٣) هذه البنية الأدبيّة تميّز أيضًا سفر هوشع، بخاصّة في الفصل ٢: ٤-٢٥.
(٤) يعلن النبيّ هذا في حقبة سيطرة البابليّين على إسرائيل، ومحاولة هذا الأخير الاستعانة بالمصريّين وبما تبقّى من الأشوريّين، للتحرّر من ظلم البابليّين (حوالى ٦٠٥ ق. م.).

العبارات المستعارة من العلاقة الزوجيّة وزنى الزوجة وخيانتها، يستمرّ سياق المقطع كلّه، وفيه تأكيد صريح على أنّ طلاق الزوج من زوجته الخائنة (مملكة إسرائيل ثمّ مملكة يهوذا) أمر محتوم ومبرّر (رج ٣: ٢-١٠).

– هنا، يُفترض أنّ الربّ سيعلن تخلّيه النهائيّ عن شعبه، ولكنّنا نُفاجأ بأنّه، لا يعلن هذا الطلاق، بل يبدأ بدعوة الزانية إلى العودة إليه، هذه الدعوة إلى "تصحيح الزواج" إذا صحّ التعبير، لا يوجهّها الربّ إلى مملكة يهوذا وحدها، بل إلى مملكة إسرائيل، التي اعتبر الكثيرون أنّ الربّ سبق وطلّقها نهائيًّا، وها هو يعلن "بطلان" هذا الطلاق، لا بطلان الزواج: "إرجعي أيّتها المرتدّة إسرائيل، يقول الربّ، فلا أقلب وجهي عليكم، لأنّي رحيم" (٣: ١٢ب).

– إنّ موضوع المغفرة الزوجيّة من الربّ لشعبه، موضوع عظيم يبرزه إرميا في تعبيره عن استعداد الربّ لتجديد عهد الزواج بينه وبين شعبه. ولكن ما هو سرّ هذه المغفرة؟ هل هي ممكنة فقط عند الله؟ من الواضح جدًّا أنّ ما ينسحب على الله في زواجه بإسرائيل، ينسحب أيضًا على زواج كلّ إسرائيليّ بزوجته!

٣) بين إر ٢-٤ وهو ١-٣: الزواج عهد حبّ لا ينفصم:

كما سبق وقلنا، من المؤكّد أنّ النبيّ إرميا متأثّر بشكل مباشر بنبيّ سبقه بأكثر من مائتي سنة. لا يتطرّق إرميا مباشرة إلى الزواج البشريّ، ولكنّ لاهوت العهد لديه متأثّر جدًّا بلاهوت العهد لدى هوشع، نبيّ مملكة الشمال في منتصف القرن الثامن ق. م. هوشع يجيب مباشرة على هذا السؤال، معلنًا أنّ للحبّ وحده القدرة على تصحيح أيّ زواج، مهما اعترته من شوائب، بل حتّى على تصحيح ما هو باطل في الأساس! كيف ذلك؟ لِنَر!

يخبرنا هوشع (الفصول ١-٣) أنّ الربّ طلب إليه أن يذهب ويتّخذ له امرأة زانية، وهي جومر، "لأنّ الأرض تزني زنى بارتدادها عن الربّ" (١: ٢). لقد بيّنت الدراسات الأدبيّة بأنّ هذه القصّة تاريخيّة وليست مجرّد استعارة مجازيّة. لقد تزوّج النبيّ بتلك المرأة، التي ما لبثت أن خانته! وماذا يفعل النبيّ؟ يقرر أن يطلّقها! (٢: ٤)، ولكنّه سرعان ما يغيّر رأيه [٥] ويقرّر، مثل الربّ، أن يدعوها للتوبة. وبدلاً من تطليقها، يروح يعمل المستحيل لكي تعود إليه (٢: ٥-١٧). لا يتغاضى الربّ، وهو زوج إسرائيل، عن خطيئة شعبه، ومثله لا يتغاضى النبيّ عن خطيئة زوجته! ولكن، كما أنّ الربّ لم يطلّق إسرائيل، فالنبيّ أيضًا، يتعلّم بدوره ألاّ يطلّق زوجته. نحن لسنا بعد في زمن المسيح، بل في زمن كان الطلاق فيه مشرّعًا، ومع ذلك فالربّ لا يقول للنبيّ ما معناه: "حسنًا، أنا الله أستطيع أن أغفر لشعبي ولا "أطلّقه"، أمّا أنت، فمن الطبيعيّ أن تطلّق جومر الزانية بسبب خيانتها لك! أنت إنسان، ولست الله، فاستفد من شريعة الطلاق الموسويّة". على العكس من ذلك تمامًا، يقول الربّ للنبيّ ما معناه: "أرأيت، أنا لم أطلّق شعبي الذي خانني، لأنّني أحبّه، ولأنّ زواجي به لا يُفصم"، "إذهب أنت أيضًا وأحبب امرأة يحبّها زوجها، مع أنّها فاسقة، كما يحبّ الربّ بني إسرائيل وهم يلتفتون إلى آلهة أخرى" (٣: ١).

(٥) لاحظ الانتقال السريع من فعل الأمر المبرم: "حاكموا أمّكم"، والتأكيد القاطع: "ليست زوجتي"، (آ ٤أ)، إلى فعل الأمر غير المباشر والذي يتضمّن دعوة للتوبة : "لتنزع" (آ ٤ب)؛ فالنبيّ يبدأ بتأكيد حتميّة الطلاق وكأنّه قد حصل، ولكنّنا نكتشف أنّه يبدأ بدعوة زوجته إلى العودة عن زناها، بل أنّه هو نفسه سيفعل مجموعة خطوات ليساعدها على العودة إليه.

ليست عظمة النبيّ هوشع فقط في أنّه شبّه العهد بين الله وشعبه بالزواج بين الرجل والمرأة، بل في أنّه فهم جوهر الزواج بين الرجل والمرأة على أنّه عهد حبّ لا ينفصم، على مثال عهد الله مع شعبه: في البداية (١: ٢)، فهم هوشع أنّ الله يأمره بأن "يتّخذ له زوجة"، امرأة زانية. وفعل "اتّخذ له زوجة" هو فعل يعبّر عن العقد القانونيّ للزواج. وهكذا فعل النبيّ. ولكنّه كان مستعدًّا لأن يفسخ هذا العقد بسبب زنى زوجته وخيانتها له. غير أنّه لم يطلّقها، لأنّ الله أفهمه أنّ الزواج ليس مجرّد عقد قانونيّ، بل فعل حبّ قادر على المغفرة (٣: ١).

خاتمة

لا نجد في نبوءات إرميا وهوشع لاهوت العهد وحده، بل أساس الزواج نفسه ولاهوته! هذا ما يؤكّده تمامًا الربّ يسوع في إنجيل متّى، عندما سألوه عن الطلاق (مت ١٩: ١-١٢): "أما قرأتم أنّ الخالق منذ البدء جعلهما ذكرًا وأنثى، وقال: لذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، ويصير الاثنان جسدًا واحدًا؟ فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد؛ فما جمعه الله فلا يفرّقنّه الإنسان". يؤكّد المسيح لليهود أنفسهم بأنّ الزواج وحدة لا تنفصم، ولا توجد أيّ علّة تبرّر الطلاق. وما يقوله البعض اليوم، من أنّ فصل الزوجين العاجزين عن البقاء معًا، أفضل من بقائهما متّحدين مع كلّ آلام الخلافات الزوجيّة، تصحّ فيه إجابة المسيح نفسها، عندما سأله الفريسيّون: فلماذا أمر موسى أن تعطى كتاب طلاق وتسرّح؟: "من أجل قسوة قلوبكم رخّص لكم موسى بطلاق نسائكم، ولم يكن الأمر منذ البدء كذلك". هذا ما سيؤكّده القدّيس بولس نفسه، عندما شبّه رباط الحبّ الزوجيّ بزواج المسيح بكنيسته، مشدّدًا على أنّ حبّ الزوجين يجب ألاّ يكون أقلّ من بذل الواحد ذاته عن الآخر (أف ٥: ٢١-٣٣)، فإن كان الزواج هو حبّ لدرجة الموت عن الآخر، فهل هذا الحبّ، إذا وُجد، يعجز عن المغفرة وحلّ أيّ نزاع مهما عظم؟ [٦]

(٦) نذكّر في هذا السياق بالمداخلات العديدة للبابا يوحنّا بولس الثاني والبابا بندكتس السادس عشر، أمام محكمة الروتا، بمسؤوليّة القضاة الروحيّين العظيمة أمام الله والكنيسة، في كلّ مرّة يحكمون ببطلان زواج قائم، وبضرورة، لا أن يتأكّدوا فقط من حقيقة مثل هذا البطلان قبل أن يحكموا به، بل أيضًا أن يعملوا كلّ ما بوسعهم، لمساعدة من يثبت لديهم البطلان، على الإيمان بأنّ الله والكنيسة قادرين على تصحيح ما كان باطلاً، تمامًا كما أنّ الله قادر أن يقيم من القبر ما كان مائتًا.

اللاّهوت والتفسير البيبليّ الحديث - ٢ -

تأويل العهد القديم

أ. لويس خليفة

المركز البيبلي الرّعاني - دير سيّدة المعونات - جبيل - بيبلوس

بيبليا

إرميا ٨٣

نبوءة إرميا في إطارها التاريخي ٨٥

الحقبة الأولى: في عهد يوشيا الملك ٨٧

الحقبة الثانية: في عهد الملك يوياقيم ٨٩

الحقبة الثالثة: في عهد صدقيا الملك ٩١

تصميم سفر إرميا ٩٢

إرميا نبي في زمن المحنة ٩٤

إرميا رجل الخصام والفتنة ٩٥

روحانية إرميا تمهّد لروحانية العهد الجديد ٩٧

١- روحانية المساكين ٩٧

٢- الميثاق الجديد ٩٨

٣- هل اختبر إرميا سرّ الفداء بآلامه؟ ٩٩

المراثي ١٠١